إن **ابن عباس** ﷺ لما ابتلاه الله بفقد بصره ، وأدرك أنه سيقضي بقيـــة حياته محبوساً خلف الظلمات فلن يرى الحياة ولا الأحياء ، هذا المســتقبل الرعيب الحافل بالأشواك ، يرى فيه الضعفاء هواناً ، الموت أقرب إليــهم من ذوق حرارته .

أما مَنْ اطمأنت قلوبهم بذكر الله فإنهم يرون فيه الخير كما كان حال ابــن **عباس** ﷺ معبراً عنه بقوله : – (٢٥)

إن يأخذ الله من عينــي نورهمــا ففي لساني وسمعي منهما نور .
قلبي ذكي ، وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور .

فليس بالبصر وحده يحيا المرء ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وابن عباس صاحب الرأي ووارث الشرع فليس يضيره فقد حاسة طالما أنـــه أُوتي ذكاء قلب وصفاء عقل وطلاقة لسان وفصاحة بيان .

ولما ندد الخصوم على " **بشار بن برد** " عماه قال لهم قولاً ، كان منه :–

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإني إلى تلك الثلاث فقير . (٢٦)

هذا عن أثر الذكر في النفس المطمئنة لا يعرف اليأس إليها سبيلاً ، فــهو كلام ينم على عظمة أصحاب تلك النفوس ، ولا شك أنهم هم المستفيدون من هذا أولاً ؛ لأنهم سيمارسون حياتهم بعد المحنة منحة من الله لهم :

﴿ ... **فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** . ﴾النساء ١٩ .

(٢) أن الشقاء يقصم فقار خلي القلب من ذكر الله ، وأن اليأس لا يســتبد إلا بمَنْ كان فؤاده هواء ، والسبب في ذلك أنه استكان لعــدوه الرابــض

(٢٥) جدد حياتك للفضيلة الشيخ محمد الغزالي ص١٥٦ .
(٢٦) جدد حياتك ص١٥٦ .

عليه والمرابط له " الشيطان " وغفل أن يجاهده بالاستعانة بـــالله عليـــه ، وأطلق العنان لنفسه المهزومة أمام أمانيها وأحلامها الوهمية فتنكب طريق الشقاء ، وحُرم الأمل ونضب معين التفاؤل لديه فصار أسير ركام ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقـــه ســـحاب ، ظلمـــات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها .

لما أُصيب **صالح بن عبد القدوس** بالعمى قال :-[٢٧]

على الدنيا السلام فما لشيـــخ ضرير العين في الدنيا نصيب .
يموت المرء وهو يُعد حيـــاً ويخلف ظنـــه الأمل الكذوب .
يمنيني الطبيب شفاء عينـــي وما غير الإله لها طبيـــب .
إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فإن البعض من بعض قريب .

وقول صالح عبد القدوس هذا بالمقارنة مع قول ابن عباس وابن برد نجد الفرق واضحاً ، وابن عباس وابن برد رأيا النور في ظلمة العيـــن ، وأن في الله عوضاً عن كل مفقود ، وما أعطى الله للعبد أكثر وأعظم مما أخذ منه .

أما صاحبهما ــ صالح بن عبد القدوس ــ فأنت تراه ينتظر نهاية الحيـــاة حتى يستريح من حياة منغصة بمرارها .

وبالمقارنة يتبين لنا أثر مداد النفس ، إذا كانت تستمد زادها مـــن محيـــط الأمل ، أو إذا كانت تعيش بمر الحنظل .

---

(٢٧) انظر جدد حياتك للشيخ محمد الغزالي ص١٥٥ وما بعدها .

ثالثاً : فتح لهم الباب على مصراعيه أن يلجوه ليغسلوا أنفسهم من أدران الماضي ، وليعوضوا ما فاتهم من يأس وقنوط.

ومن ذلك قوله ﷻ :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.﴾ الزمر ٥٣ .

ففي الآية : قوم جاوزوا الحد ، تراكمت ذنوبهم حتى أوصلتهم إلى درجة اليأس من نزح هذا الكثيف ، واستسلموا وركنوا وعجزوا عن العلاج .

نداء يدوي في الآفاق موجه إلى تلك النفوس البائسة ، والقلوب المتجمدة ، أن تقف وقفة انتباه تستشعر فيها أن عفو الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأن رحمة الله قريب منهم ، وأن الذنوب مهما كانت كثرتها فإن سعة رحمة الله أوسع ، " إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية ، كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال ، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده ، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم ، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه ، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله ، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ، ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذ أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده ، وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ، ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ، ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم ، يعلم الله ﷻ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له يد العون ويوسع له في الرحمة ، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ،

ويقيم خطاه على الصراط ، وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعُد يُقبل ولا يُستقبل .. في هذه اللحظة،لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف.(٢٨)

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . ﴾ الزمر ٥٣ .

هذا التصوير البياني الرائع لذلك النداء الرباني البديع الذي فيه يبث الله روح الأمل فيمن أُشربت قلوبهم اليأس .

هذا البيان يصور لنا أن نداء الله للعباد أن يلجوا باب رحمته إنما يتحقق فيهم بعد أن كُبكبوا في المعاصي وكانوا بها غاوين ، وخروا فيها إلى الأذقان ن وكانوا لها من الساجدين ، تبلدت أحاسيسهم نحو ربهم ، وصُمت آذانهم فلم تعد تسمع ، وعميت أبصارهم فلم تعد تر .

يناديهم الله : كم تساوي ذنوبكم أمام سعة رحمته، لو بلغت عنان السماء ، وعدد حبات الرمال ، وقطرات السحاب ... إلخ .

كم تساوي الأرض والسماء وما بينهما بالنسبة لله ، ليس هناك وجه مقارنة ، إن العالم ليذهل لما يقرأ عن إعجاز الله في الكون ن فما بالك لو اطلع على رحمة الله كصفة لهذا المكون العظيم .

يقول ﷺ:" **إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا و تسعين رحمة و أرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة و لو يعلم المؤمن بالذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار .**" (٢٩)

---

(٢٨) في ظلال القرآن ٣٠٥٨/٥ .

(٢٩) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ ــ صحيح الجامع الصغير رقم١٧٦٣.

وفي رواية الترمذي : " **لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد .**" (٣٠)

هكذا تقرر الآية : حالة ضعف العباد أمام أنفسهم ، وسعة رحمة الله حينما بدد اليأس من نفوسهم وفتح لهم صفحة مشرقة بخلع ثيابهم الباليـة ، واستبدالها بثياب جديدة جيدة .

رابعاً : وعد الله ﷻ البائسين اليائسين أنه سيخلع عليهم لباساً جديداً يستبدل به لباس البؤس والشقاء .

وهذا الأمر مترتب على صدق إقبالهم على الله ﷻ ، ورميهم الماضي البائس خلف ظهورهم ، قال ﷻ :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . ﴾ الفرقان ٧٠ .

وفي الآية المباركة :-

١- أن الله ﷻ استثنى من الهالكين كل مَنْ توفرت فيه شروط التوبة النصوح ، وهي إقرانها بالإيمان وعمل الصالحات .

٢- أن الله ﷻ ــ المطلع على نفوس عباده ــ وعد بإبدالهم حياة أخرى ينعمون فيها بمعية ملك الملوك ، ولأهل التفسير كلام جيد في هذا (٣١) .

---

(٣٠) رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ ــ صحيح الجامع الصغير رقم ٥٣٣٨ ، وانظر منه ــ فيما يتعلق برحمة الله ﷻ ــ الأحاديث بالأرقام الآتية ١٧٦٧و٣٠٩٥و٣٥٥٠.

(٣١) انظر تفسير القرطبي الجامع لحكام القرآن ٥٢/١٣ .

يقول أبو عبد الله القرطبي : " قلت فلا يبعد في كرم الله ﷻ إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد قال ﷺ لمعاذ :

" **وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .** " (٣٢)

وعلى هذا فإنه لن تستطيع أي هيئة طبية أن تحول حياة اليائسين القانطين هذا التحول العجيب على هذه الشاكلة الفريدة التي قصها علينا القرآن ؛ لأن القلوب بيد الله ، والذي يحولها من الضد إلى الضد إنما هو الله ﷻ ، والذي يمحو ظلمتها إنما هو الله ، وهو القادر على إبدال المرء قوة بعد ضعف بأمره، لا يسأل عما يفعل ، ولا حرج على فضل الله ، وهو ﷻ الذي وعد بأن ينقل أسماءهم من سجل العصاة إلى سجل الطائعين ، ومن كتاب الفجار إلى كتاب الأبرار في عليين .

إنه لمنهج متفرد في فتح باب الأمل أمام اليائسين في الحياة يعطيهم إشراقات ينطلقون بها في عالم العطاء بعد أن كانوا في كنود ، وفي عالم الأحياء بعد أن كانوا موتى :

﴿ **والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون .** ﴾ الأنعام ٣٦ .

---

(٣٢) تفسير القرطبي ٥٢/١٣ ، والحديث رواه الترمذي وأبو داود وأحمد والحاكم عن أبي ذر ﷺ ، والترمذي وأحمد و البيهقي في شعب الإيمان عن معاذ ﷺ ، وابن عساكر عن أنس ﷺ ، وهو حديث حسن ، وبدايته "اتق الله حيثما كنت ..."ـ صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٩٧، وجاء برواية :" إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها " أخرجها أحمد عن أبي ذر ﷺ بسند صحيح ـ صحيح الجامع الصغير رقم ٦٩٠ .

خامساً : وَعَدَ ﷻ بأن يمد يد العون لكل مَنْ توجه إليه .

فلا يتركه يحبو إليه ﷻ وحده ، بل يحنو ، ويرفعه إلى مصاف المقربين، قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ.﴾ العنكبوت ٦٩ .

وقال جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.﴾محمد ١٧.

وفي هاتين الآيتين يبث الله روح الأمل في نفوس الحائرين في ظلمات التيه عن الله ، إنهم بمجرد صدق التوجه إلى الله سيجدون الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، مَنْ تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومَنْ أتاه يمشي أقبل عليه يهرول .

يقول **الأستاذ سيد قطب** في شأن العائدين إلى ظل قدسه ﷻ : " الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ولم ييأسوا ، الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس ، الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب ، أولئك لن يتركهم الله وحدهم ، ولن يضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم ، إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم ، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم ، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم ، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء . " (٣٣)

إن المرء إذا أراد تحولاً وارتقاء فسوف يجد صعوبات وعقبات لا يستطيع أن يقتحمها وحده ، فلابد له من قوة تنشله ، ولابد من يد ترتقي به ليتخطى تلك العقبات .

إنها يد الله الحانية التي وعد أن يقدمها لمن نفض يديه من الطين ، وأراد أن يعرضها لأشعة نور الله الذي لا يخبو .

---

(٣٣) في ظلال القرآن ٥/٢٧٥٢.

سادساً : وعد الله النصر والتمكين للمستضعفين من المؤمنين ما إن استنصروه وخضعوا إليه وذلوا بين يديه تبارك وتعالى .

وهذا الوعد مشروط بشكر الفئة المؤمنة ربها على هذه النعمة ، نعمة التمكين لهم ، قال ﷻ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ.﴾النور ٥٥ .[٣٤]

وكون المولى ﷻ ذكر هذا القيد ﴿ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ فقد أفاد أن هذا الوعد متحقق في كل الأمة الإسلامية عبر العصور ، وليس خاصاً بقرن بعينه كما ذكر الإمام القرطبي في تفسيره : " هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام . "[٣٥]

وهذا الوعد من الله فيه بث روح الأمل في المسلمين أن نصر الله منهم لقريب ، فما عليهم إلا أن يدفعوا الثمن ، وهو :

الإيمان وعمل الصالحات .

و" حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ، وتوجه النشاط الإنساني كله ، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى

---

(٣٤) أنظر أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص٤٩٤ ، وانظر تفسيرها في مفاتيح الغيب للرازي ج١١ / ٦٢٣ ط دار الغد العربي ، روح المعاني للآلوسي ٢٠٣/١٨ ط مكتبة دار التراث .

(٣٥) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٩٦ .

الله ، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأمـــره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفـــس ولا شـــهوة فـــي القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ." (٣٦)

فإذا ما أدوا ما عليهم ووفوا لربهم فليس هناك مَنْ هو أوفى من الله :

﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ... ﴾ التوبة ١١١.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الميعَادَ ﴾ آل عمران ٩ .

وعلى هذا المنهج القرآني في التغيير تستطيع أن تنهض من كبوتها فـــي أي وقت ، فزمام المبادرة بيدها ، مهما كانت مكانتها اتحـــداراً ، ومـــهما كان ضعفها قوياً فإنها تستطيع أن تغير ما بأنفسها حيثما تقيـــم الصـــلاة وتؤتي الزكاة وتطيع الرسول ﷺ ، وأن تعبد الله و لا تشرك به شـــيئاً ، وأن تعمل على أن يستوي زرعها على سوقه ، ويوم أن تصل إلى تلـــك المرحلة فسوف ينصرها الله بأمرين :

١- **أن يبارك الله فيما تحت أيديها من مقدرات** ، يبارك في مرماهـــا ، ويبارك في إصابتها الهدف ، ودليل ذلك قوله ﷻ :-

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى .. ﴾ الأنفال ١٧

" فيد الله هي التي تدير المعركة من ورائهم ، وتقتـــل لـــهم أعداءهـــم ، وترمي لهم وتصيب . " (٣٧)

---

(٣٦) في ظلال القرآن ٢٥٢٨/٤ .

(٣٧) في ظلال القرآن ١٤٩٠/٣ بتصرف يسير .

٢- **أن يلقي الله الرعب في نفوس عدونا :** وهو من أخطر الأسلحة التي لم تهد إلا للفئة التي تحارب في سبيل الله ، قال الله ﷻ :

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ..﴾ آل عمران١٥١ .

وقوله ﷻ **﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب .. ﴾** الأنفال ١٢ .

فالرعب جند من جنود الله يقذفه في قلوب العصاة والطغاة من البشر ، فالله جعله بيده لا يملكه غيره ، جعله وقفا على عباده حقا .

يقول ﷺ : " **ونصرت بالرعب .** " (٣٨)

وليس النصر من خصوصياته ﷺ وإنما هو عام في حق أمته ، " إذا كانت أمته قائمة على شريعته وسنته . " (٣٩)

والواقع يؤكد هذا ، فما من معركة من معارك المسلمين مع أعدائهم إلا وكان لسلاح الرعب دور كبير في نصر المسلمين .

وهكذا تلقي الآية الكريمة بالأمل في النفوس البائسة أن تقوم وتنهض وتعمل على جلب النصر وصناعته .

---

(٣٨) متفق عليه ، أنظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب الصلاة / باب قوله ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ٦٣٤/٢ برقم ٤٣٨ عن جابر ﷺ ـ ومسلم بشرح النووي / كتاب المساجد / ٤١٣/٥ عن جابر ﷺ .

(٣٩) فتح المنعم بشرح صحيح مسلم ـ د٠موسى شاهين لاشين ١٦/٥ .

وفي الآية الكريمة لفتة أخرى : إن إهداء الجليل ﷻ النصر للأمة الإسلامية سيكون على غرار الأمم السابقة : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴾ النور٥٥ .(٤٠)

وذكر هذا القيد تطمين لهم وحافز لهم إن إدراك النصر ليس ببعيد ، وليس بعزيز ، وإن أعتى العتاة من البشر الذين استذلوا رقاب المستضعفين لم يعجزوا الله ، ولن يعجزوه ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ .﴾ النور٥٧.

وعد الله الأمة الإسلامية بالنصر والتمكين قد يراه ضعاف النظر بعيداً لكن الله يراه قريباً ، وهو ما أكده القرآن الكريم :

﴿ ... أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ . ﴾ البقرة٢١٤.

---

(٤٠) تحدث القرآن الكريم باستفاضة بالغة عن عاقبة كل أمة قامت تؤدي دورها على مسرح التاريخ ، فأما مَنْ طغى وآثر الحياة الدنيا حقت عليه كلمة ربك ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ هود ١٠٢ . أما إذا كانت على تقوى من الله ورضوان ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ يونس ٩٨ . وذكر القرآن نماذج كان منها " قوم موسى " حينما قال : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . ﴾ الأعراف١٣٧.

سابعاً : ضرب الأمثال بقوة الأمل في نفوس الأنبياء .

ولقد تعددت النماذج على النحو التالي :-

[١] في مواجهة النبي بخصوم الدعوة .

ومن ذلك كان ﷺ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .﴾ البقرة ٢١٤ .

وفي هذه تصوير للحالة التي يصل إليها المرسلون وأتباعهم من التضييق والإيذاء لدرجة الزلزلة ، وفي مصحف ابن مسعود ﷺ ﴿ وَزُلْزِلُوا ثم زُلْزِلُوا﴾ أي خوفوا وحركوا لدرجة أن أسباب النصر فقدت جميعها ، وأن الدائرة استوعبتهم تماماً حينئذ لم يجدوا باباً إلا باب الله ، فقوي أملهم بالله ، وتعلقت قلوبهم به ، فكان هذا عامل صمودهم أمام تلك الزلازل البشرية ، لكنهم لبشريتهم ــ التي يراعيها الإسلام ــ استبطأوا النصر فقالوا ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ؟

وهو سؤال له مغزاه العظيم فلي مقابلة كلمة ﴿ وَزُلْزِلُوا﴾ ومن حق كل مسلم أن يرددها ، لكن لن يكون لترديدها صدى ، ولن يكون لكلامه اعتبار إلا إذا مر بصدر الآية ﴿ وَزُلْزِلُوا﴾ حينئذ سيفتح الله أبواب السماء لينزل جنده حاملين معهم البشرى العظيمة التي تزلزل عروش الباطل وتبطل كيد المبطلين :

﴿ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .﴾

يقول الشيخ سيد قطب : " وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة ، إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه ، من الرسول الموصول بالله ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله ، إن سؤالهم : متى نصر الله ؟ ليصور مدى

المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة ، ولن تكون محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب فتبعث منها ذلك السؤال المكروب ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟﴾ وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة ، عندئذ تتم كلمة الله ، ويجئ النصر من الله ، إلا إن نصر الله قريب .

إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، الذين يصمدون للزلزلة ، الذين يحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله ، وحين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى "نصر الله "، لا إلى أي حل آخر ، ولا إلى أي نصر لا يجئ من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله . "[٤١]

بهذه المعالم الإيمانية ينطلق المؤمن في طريق الدعوة جاهداً على تخطي تلك العقبات الكؤود حتى يجد النصر المبين القريب في باطنها .

[٢] في بث روح الأمل في نفوس قومه .

ومن ذلك لما كان نبي الله موسى عليه السلام وقومه " بني إسرائيل " في حصار بين البحر والطاغية جرى حوار المادية والروحية :

المادية متمثلة في اليهود الذين آذوا موسى عليه السلام .

والروحية المتمثلة في النبوة نبع السماء الصافي الذي ليس فيه دخن .

فاليهود يرون النجاة فقط في أسباب الحياة ، وقد انعدمت أمام أعينهم ، فالعدو وراء ظهورهم يتعقبهم ، والبحر أمامهم فليس أمامهم إلا أحد طريقين ، إما الموت غرقاً وإما الموت رهقاً بالسيف .

([٤١]) في ظلال القرآن ١/٢١٨-٢١٩ .

ومن هنا فقد عابوا على نبيهم أنه كان سبباً فيما هم فيه من معاينتهم الموت قبل نزوله بساحتهم . (٤٢)

ونبي الله موسى عليه السلام خرقت أشعة الروحانية عنده حجب المادة فأدرك أن النجاة ليست في توفر الأسباب المادية ، وأن الهلاك ليس مترتباً على زوالها ، وإنما هناك قوة عظمى تدير الكون بكلمة ، ومن هنا كان رده عليهم قاطعاً شافياً ، قال تعالى ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . ﴾ الشعراء ٦٠-٦٨.

والآيات من سورة الشعراء تقص علينا قصة من قصص الصراع غير متكافئ الطرفين ، طرف ذليل ضعيف لا ينكأ عدواً وليس له ركن شديد يأوي إليه (٤٣) وهم اليهود أتباع موسى عليه السلام .

وطرف خرجوا من ديارهم بطراً وعلواً في الأرض وفساداً يريدون القضاء على المستضعفين ليلقوا بالرعب في نفوس الشعوب ، وليضعوا بصمة على جدار التاريخ أن الكلمة العليا للطغاة ولا مكان للمستضعفين أن يطالبوا بحقوقهم الطبيعية في الحياة .

---

(٤٢) كيف نتعامل مع القرآن ــ الشيخ محمد الغزالي ص١٧٥ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٤٣) هذا باستثناء نبي الله موسى عليه السلام فهو الذي آوى إلى ركن شديد يحميه من هذا العبد الآبق " فرعون " ، وهو ملك الملوك ، فقال موسى عليه السلام ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ .

خرج الطاغية فأدرك اليهود مشرقين ، أي ساعة الإشراق ، أو "مشرّقين" بتشديد الراء كما في قراءة الحسن وغيره .

وتراءى الجمعان وتقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ، ولما عاين اليهود ذلهم بين فكي عدوهم ، بلغ كربهم مداه ، " ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه ، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، و إن كان لا يدري كيف يكون ، فهي لابد كائنة ، والله هو الذي يوجهه ويرعاه ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . ﴾

كلا لن نكون مدركين ، كلا لن نكون هالكين ، كلا لن نكون مفتونين ، كلا لن نكون ضائعين ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين ، وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. ﴾ " (٤٤)

وهكذا يعلمنا نبي الله موسى عليه السلام وكليمه أن الأمة المسلمة مهما اشتدت بها الخطوب ، وبلغت بها القلوب الحناجر ، وشخصت أبصارهم لهولها ، فعليها أن تردد كما يردد ، وأن تتفاعل منها القلوب ، وتهتز منها المشاعر ، وتولي ظهرها لتلك الخطوب ، وتقبل على ربها قائلة ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . ﴾

وإذا كان الله سبحانه قد أنعم على بني إسرائيل في هذا اليوم ، فإن هذه النعمة المتعددة الجوانب : النجاة من العدو ، وهلاك العدو ، وجعل لهم آية أكرمهم بها ، وفضلهم بها ... إلخ .

---

(٤٤) في ظلال القرآن ٥/٢٥٩٩ .

كانت هذه النعمة تصديقاً لما كان يلقيه نبي الله موسى عليه السلام من قبل عليهم حينما كان ضعفهم قوياً ولا ريح لهم :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . ﴾ الأعراف ١٢٨ .

فأكرمهم ربهم كرامة لنبي الله موسى عليه السلام ولاستضعافهم ولتجبر عدوهم عليهم ؛ لأنهم خرجوا معه ولم يتخلفوا :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .﴾الأعراف ١٣٧ .

ففي لحظات الشدة واحتدامها ظل نبي الله موسى عليه السلام يثير فيهم عاطفة الرجاء في الله ، ويبث فيهم روح الأمل فيما عند الله ، حتى إذا وقعت الواقعة وقرعت آذانهم قارعة عاديات فرعون ، وحاقت بهم حاقة استعلاء الباطل ، ازداد أمل نبي الله إشراقاً لو وُزع على أمة لوسعها ، فقال كلمته ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . ﴾ وقال الله كلمته ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . ﴾ القصص ٤٠ .

وانتهت كلمة فرعون إلى الأبد ليكون لمن خلفه آية .

[٣] نبي أدرك سعة الأمل في الظلمات .

وهو نبي الله يونس عليه السلام ، ذلك الذي ﴿ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ.فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ.﴾الصافات ١٤٠-١٤٢.

أبق : تباعد ، وسُمي كذلك لأنه خرج بغير أمر الله مستتراً من الناس .

والفلك المشحون : المملوءة . فساهم : فقارع ، المدحضين : المغلوبين ، وملِيم : أي أتى بما يُلام عليه .

وساعة أن وجد نفسه في ظلمات ثلاث " بطن الحوت " وكفى بها ظلمة ، و " ظلمة البحر " ، وهي كذلك ظلمة مهلكة ، و " ظلمة الليل " .

في هذه الضائقات أدرك المخرج ، وفي تلك الظلمات رأى النور فاستشعر الذنب ، وأدرك التقصير ، ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى٣٠ .

حينئذ لابد من العلاج ، والعلاج السريع المفعول ، وهو التجرد الذي يليق بمقام ذي الجلال والإكرام فألهم ما يقول كما ألهم أبوه من قبل ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ... ﴾ البقرة ٣٧ .

تاب عليه ربه ونصَّبه خليفة ، وهو منصب رفيع حُسد آدمُ وذريته عليه من بعده .

كما ألهم يونس عليه السلام من ربه كلمات ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . ﴾ الأنبياء ٨٧.

والإلهام الذي ألهم به لم يأت من فراغ وإنما كان لأنه من أهل الذكر والتسبيح ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . ﴾ الصافات ١٤٣-١٤٤.

أي لكان الحوت قبره ، ولكن جعله معبده ، فأمر الله الحوت أن يحفظه إلى حين ثم يرسل به على الشاطئ إلى حين ثم بعثه إلى أمة متعها الله بإيمانها إلى حين .

والشاهد في القصة :- [٤٥]

(١) أن ضائقة يونس عليه السلام قد بلغت المنتهى ، وفاقت الإدراك البشري: فلولا أن القرآن قصها علينا ، ولولا أن السنة الصحيحة بينتها لما حفل بها الفكر الإنساني السوي ، ولظنها ضرباً من الخيال ، لكنها كانت من صنع الله وتدبيره ، وقد وقعت فعلاً ، وأخبر بها القرآن صدقاً .

أدركنا أن تلك الضائقة لا تثبت أمامها أقوى القوى إلا قوة استلهمت حركتها من ملك الملوك وهي قوة الأنبياء .

وفي هذه القصة تصوير للمحنة حينما تتشعب بشاعتها ، لكنه نادى في ظلمات محنته نداءاً تمحي به الظلمات جميعها مهما كان أصل تلك الظلمات ثابتاً وفرعها في السماء .

فبطن الحوت كان له أرضاً وسماء ، وظلمة البحر كانت قد ضربت بجذورها في الأعماق ، ومن ناحية أخرى لا يستطيع هو بنفسه ان يدرك سماء البحر ، ولو نجا منهما فإن ظلمة أخرى ستواجهه وهي ظلمة العراء حينما يكسوه ليل بهيم عابس يكشف القناع عن كل مفترس ضار .

فهل يتصور امرؤ فداحة خطب ذاك البلاء ؟!

لكن للإيمان شأناً آخر حينما يطير بصاحبه ليقتحم تلك العقبات ، فإذا به يحلق فوق الضائقة ويوجهها .

([٤٥]) يُنظر تفاصيل قصة يونس عليه السلام في كتب التفاسير كالقرطبي " الجامع لأحكام القرآن " ، جامع البيان في تفسير القرآن " للطبري ، تفسير الظلال ، قصص الأنبياء لابن كثير .

كذلك خرج منها يونس كيوم ولدته أمه ، فلا ذنب له ولا معصية ، وخرج من بطن الحوت كما يخرج الطفل من بطن الأم ، فظلمات يونس عليه السلام أشد من الظلمات الثلاث [٤٦] ، فإذا بالله يرعاه ويرزقه من حيث لا يحتسب، يرزقه اليقطين ينبت له به شعراً ، ويسكن له به جوعاً ، ويطمئن به من خوف ، ويبعث إلى أهل السعادة فيزيدهم سعادة .

* فمهما نزلت الضائقات بساحة المؤمن فهل ستصل في مجموعها قريباً من ظلمة واحدة مما وقع فيها نبي الله يونس عليه السلام ؟ ومع هذا فإن الله ﷻ قد جعل له مخرجاً ، وذلك لأمرين :-

(أ) لتقواه : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . ﴾ الصافات ١٤٣-١٤٤.

(ب) قوة أمله في الله وحسن ظنه به ، والله تعالى عند حسن ظن عبده به ، وحسن الظن ثمرة من ثمار اليقين بالله كما أن الأمل كذلك .

(٢) أن الله ضرب المثل بنبيه يونس عليه السلام ليجعل منه قدوة لأصحاب الشدائد من المؤمنين ، فقال ﷻ :

﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ الأنبياء ٨٨ .

إذا اتقوا ربهم حق تقاته ، وكان عندهم ثقة بما عند الله ، فلم يتسرب اليأس إلى نفوسهم ، كان حقاً على الله أن يسبغ عليهم ثوب العافية ، وأن يحيطهم بمعيته .

---

(٤٦) التي ورد بها قوله ﷻ ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ الزمر٦ .

(٣) أن نبي الله يونس عليه السلام تعجل قطف الثمار فلم يصبر ــ وينس من قومه وأنذرهم أن مهمته فيهم قد انتهت ، وأن نذيراً من النذر الأولى يوشك أن يعمهم ، وخرج من مضايقات قومه له فكان قدره مع ضيق لا يخطر له على بال ، فاستشعر أن الله أبدله بضيق قومه له ضيقاً أشد ، فأدرك على الفور أنه بسبب تضايقه من قومه ضيَّق عليه في الظلمات .

هذا درس للدعاة إلى الله عز وجل ألا ييأسوا وإنما يصبروا .

يقول **الأستاذ سيد قطب** :- " إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدراً بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ضيق الصدر، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين ، ولولا أنه ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه ، لما فرج الله هذا الضيق ، ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه .

وأصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً ولكنه بعض تكاليف الرسالة ، فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا .

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس ، واستجابة القلوب مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة ، وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف ، ولو صبروا هذه المرة ، وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب .